الاشارة اليهِ كان على المادح او المقرظ ان يقطع لممدوحهِ او مقرَّظهِ ثوبًا من الثناء واسعًا ضافيًا ليكون في سعتهِ وضفوهِ دليل على ان ذلك وان كان حقًّا الاَّ انهُ قد خالطهُ شيءٌ من تحسين الحبّ وما كان الحبيب ليقري حبيبهُ بالطعام الجشب [1] او ليقف بمدحهِ عند حدّ الاهلية بل يدفعهُ الحبّ الى ان يتخطى ذلك الحدّ تخطيًا مألوفًا. وهل المدح الاَّ عن كرم في الطباع وكيف يتلاقى الشحّ والكرم في جهةٍ واحدة وباعتبارٍ واحدٍ

سعيد الخوري الشرتوني

زوجها ابوها

الشعر القصصي كان شائعًا عند العرب قبل الاسلام كما ترى في اراجيزهم وبعض قصائدهم المشهورة وهو اقرب الى الفطرة من الشعر المقصور على المدح والهجاء والغزل والرثاء والوصف والحكم او على نظم العلوم والفنون. لكن العرب لم يبلغوا فيهِ مبلغ اليونان والرومان ولا مبلغ الفرس والهنود ثم اهملوهُ بعد الاسلام فوضعوا قصَّة عنترة نثرًا بدلاً من وضعها شعرًا. وفعلوا كذلك بالف ليلة وليلة. وقد رأى ابناء عصرنا ان يعودوا الى الشعر القصصي ويجاروا فيهِ الافرنج ومن ذلك هذه القصيدة وقد حدثت حادثتها في احدى مدن سويسرا وتناقلتها الجرائد الافرنجية. وخبرها ان احد الشبان واسمهُ مولر تزوج منذ عشرين سنة بفتاة فقيرة مثلهِ فاضطرَّ ان يرحل عنها وهي حامل ثم انقطع خبرهُ حتى ظنهُ الناس قد مات في غربتهِ اما زوجتهُ فولدت بنتًا وماتت عنها ساعة وضعها فتبنَّى الطفلة رجل غنيٌّ كريم من بلدة مجاورة. وفي هذه الايام عاد والد تلك الطفلة من سفرهِ وقد حسنت حالهُ فأُخبر بوفاة زوجتهِ اما ابنتهُ فلم يعرف عنها شيئًا ورجح لهُ اهل بلدهِ انها قد تكون لحقت بوالدتها ثم فارقهم. واتفق انهُ قدم بلد الرجل الذي تبنَّى ابنتهُ ووقع بصرهُ عليها دون ان يعرفها فأُعجب بجمالها وآدابها فخطبها الى مربيها فازوجهُ بها ثم عرف من حديثها انها ابنتهُ بلا ريب فلم يجد افضل من الانتحار فانتحر بعد ان اوصى لها بثروتهِ. انتهى الخبر ملخصًا

فتناول هذه القصة حضرة الشاعر العصري نقولا افندي رزق الله ونظمها فجاءت قصيدة حسناء تشهد لناظمها بالبراعة والفضل قال

---

(١) الجشب من الطعام ما لا ادام فيهِ

تزوّجها لكن بغير غرامِ وفارقها من بعدِ صحبةِ عامِ
وما كان لولا فقرُهُ بمسافرٍ وهل لفقيرٍ راحةٌ بمقامِ
على أنهُ مذ سار ألقى اعتمادهُ على جبرةٍ في الحيِّ غيرِ كرامِ
ثني الطرفَ عنها منهم "كل مرتجى" لدفعِ بلاءٍ او لنيلِ مرامِ
واعرض عنها عارفوها لفقرها كاعراضهم عن مبتلى بجذامِ
فمدّت يديها للسؤال يرغمها كما مدّ جانٍ عنقهُ لحسامِ
تطوّفُ غرثى بالبيوتِ لعلها يجودُ عليها محسنٌ بطعامِ
وكم ليلةٍ باتت وقد غلبَ الاسى عليها فلم تهنأ بطيبِ منامِ
يزيدُ سكونُ الليلِ حزنًا فؤادها لما حولها من وحشةٍ وظلامِ
وما زال ذاك البؤس يطوي شبابها وينقلها من صحةٍ لسقامِ
الى ان تولاّها المخاضُ بطفلةٍ بدايتها موصولةٌ بختامِ
قضت أمها وقت الولادة ما درت بنت حياها النحسُ أمْ بغلامِ
رمتها الى الدنيا تعاني شقاءها وليس لها من ناصرٍ ومحامِ
ومن عاشَ منكودًا مدى العمر عيشهُ فما يتهنّا مرة بمجامِ

***

توهم قومٌ ابصروا البنت انها الى قبرها منقادةٌ بزمامِ
كذاك حياةُ الطفلِ لولا عنايةٌ قضى قبلَ يومَيْ حبوةٍ وفطامِ
ولكنها لاقتْ كريمًا محبيًا فعاشتْ لديهِ في اعزِّ مقامِ
كريمٌ تبنّاها فكان لها أبًا وكان لها في الناسِ خير امامِ
فشبّتْ على مهد الدلالِ ولم تُعَبْ ولا عيرتها الحاسداتُ بذامِ
ولما مضت عشرون عامًا تسربلتْ من الحسن والاحسانِ ثوبَ تمامِ
فكانت تفيض السحر في قلبِ من ترى فتملأهُ من صبوةٍ وغرامِ
نفورٌ نفارَ الظبي من ظلِّ ريبةٍ ومن وَحي الخاطرِ وهمسِ كلامِ
وما ذاكَ عن كبرٍ ولكن لعلها بمن حولها من حسّدٍ ولئامِ
وخيرُ حجابٍ للمليحةِ بخلها وان لم يحجّبْ وجهها بلثامِ

***

ترامى الى الشبانِ في الحي صيتها ولحسنِ صيتٌ طائرٌ متوامِ

فاقبلت الخطّابُ منهم وبعضهم يزاحمُ فيها البعض ايّ زحامِ
وفيهم ابوها عادَ من بعد غربةٍ ادرّتْ لهُ مالاً كصوبِ غمامِ
ويجهل كلّ الجهل أنّ لهُ ابنةً يهيم بها الخطّابُ كلّ هيامِ
وقد بلغ الضعفينِ من عمر بنتهِ ولكن لهُ قلبٌ كقلبِ غلامِ
فلما رآها عاد من غير علةٍ طريحَ سقام او جريحَ سهامِ
فما نبذوهُ حينما جاء خاطباً ولم يسمعوا فيهِ أقلّ ملامِ
وللمالِ عند الاكثرين كرامةٌ وفضلٌ يخطّابِ الاوانسِ سامِ
وما هي الاّ حفلة عقدوا بها زواجهما ثم انقضت بسلامِ
فكان زواجاً في الكتاب محرّماً وعند عبادِ النارِ غيرَ حرامِ

***

تمازجت الروحانِ كلّ تمازج كما التزمَ الجسمانِ كلّ لزامِ
فأذكرها ذاك الهناء شقاءها وليتم جرحٌ في الحشاشةِ دامِ
فسالت مآقيها بدمعٍ كلؤلؤ تجدّر من سلكٍ بغيرِ نظامِ
فقال لها لا تكتمي الأمر واكتمي مسيلَ دموعٍ في الخدودِ سجامِ
فقصّتْ عليهِ كيف عاشت بتيمةً على فضلِ قومٍ صالحينَ كرامِ
وكيف أصيبتْ أمها حين وضعها بموت كما شاء الشقاء زوّامِ
فلما انتهت مما رَوَتْ ظلّ صامتاً لفرطِ جواهُ ملجماً بلجامِ
فحدّق في ماضيهِ تحديق نادمٍ فأقشعَ عن عينيهِ شبهُ غمامِ
رأى انهُ جهلاً تزوّج بنتهُ كرامٍ رمى أحشاءهُ بسهامِ
فباء بيأسٍ يذهلُ المرء بعضهُ ويصرعهُ سكرًا بغيرِ مدامِ
فأملى عليهِ ذلك اليأس أسطرًا بدمعٍ أسى مكتوبةً وضرامِ
يقول لها فيها مقالة والدٍ يحنّ حنين الزوج دون ملامِ
وهبتكِ مالي وهوَ ابقى لديكِ من حياتي التي لم ارجها لدوامِ
أقيمي بلا زوج غدًا او تزوّجي بذاك وهذا تحفظين ذمامي
ولا تسألي عما لقيتُ فانني لقيتُ "حمامي قبل يومِ حمامي"

القاهرة

نقولا رزق الله